

## الكرم

إن لفظة « الجود » التى وردت فى قانون الفروسية الغربية بمعنى « السخاء » ، لا تكفى للتعبير عن جود العرب ، ونحن نؤثر عليها لفظة « الكرم » ، فهى أوسع معنى وأكثر دلالة على كل ما هو نبيل الطبيعة ، وكل ما يصدر عن وجدان رقيق كريم . وإذا فهمنا لفظة الكرم على هذا النحو ، رأينا أنها تشمل :

أولاً - السخاء أى الميل إلى الإعطاء ، وهو ما سنطلق عليه « كرم اليد » .

ثانياً - الكرم الذى هو سجية الحر ، أى التسامح ، وهذا ما سنطلق عليه « كرم النفس » .

ثالثاً - العفو عن الذنوب ، والشهامة لإزاء العدو ، وهو ما سنطلق عليه « كرم القلب » .

وسنستعرض فى إيجاز مظاهر كرم اليد والنفس والقلب عند العرب .

### ١ - كرم اليد

يقول فوريبيل « كان السخاء أسمى فضيلة يتحلى بها الفارس بعد شجاعة تتفوق على كل حرص . ولم يكن المهم هو أسلوب التحصيل .

فلقد رمى الشاعر « ريمبو » Raymbaud يوماً السيد « مالا سينا » بأنه تاطع طريق وسارق ، فرد قائلاً : « أجل ، والله يا ريمبو ، إنى لأعترف بأننى كثيراً ما اختطفت مال الغير ، ولكن رغبة منى فى الإعطاء لا فى الإثراء واكتناز الكنوز . » ولقد عمد الشعراء إلى الحث على السخاء ومدح الجنود بين أبطال العصور الوسطى ، بكل ما أوتوا من بلاغة . وهذا أحدهم يخاطب فتى يتوق إلى أن يصبح فارساً ، فينصحه هذه النصيحة « انفق عن سعة ، ولتكن لك دار جميلة لا باب لها ولا مفتاح ، ولا تستمع للخبثاء يشيرون عليك بأن تقيم عليها بواباً يضرب بالعصا تابعاً أو خادماً أو شريداً أو منشداً يريد أن يدخل » . ويقول « برتران دى بورن » Bertrand de Born . « إننى أعتبر فتى نبيلاً السيد إذا كثرت نفقات بيته . إنه فتى إذا وهب فأعقد ، وإذا أحرق القوس والسهم . وأما الهرم فهو السيد الذى لا يغامر بشيء ، والذى يكتنز القمح والدهن والشراب ، بل إنه الذى لو كان لديه فرس ، قال : إنه فرسى » (١) .

ولم يكن بالعرب حاجة — لكى يهبوا ويبدأوا — إلى مثل هذا الحث الشديد . لقد كانوا يهبون عن طبيعة فيهم ، كانوا يهبون بالسليقة ، ويهبون جرياً على تقاليدهم ، ويهبون إذ تهزم الرحمة ، ويهبون ابتغاء لطرب المتعة وحسن الذكر وبعد الصيت . ولم تكن بهم حاجة أيضاً إلى أن يتعلموا من الشعراء كيف يمنحون ، فلقد كانوا يسرفون فى الإعطاء ويتلفون ،

(١) فوريل : تاريخ الشعر البروندى ، ج ١ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

لا يحسبون حساباً، أو يلتمسون جزاء . ولم تكن حسناتهم تقاس على قدر ثرائهم — لأنهم كانوا يمعنون في الإحسان حتى يجرموا أنفسهم من ضرورات العيش، بدلاً من أن يرفضوا لسائل سؤالاً — أو تقاس بالنسبة إلى طلب من يقصدهم ، لأنهم كانوا يزعمون أن الهبة ينبغي أن تكون جديرة بالواهب دون التفتات إلى درجة احتياج المنكوب الذي استغاث بهم . وما كانوا يزنون عطاياهم ، بل كانوا يخلعون على الفقير من اللباس ما يكسوه ويتيح له أن يكسو أفقر منه ، وكانوا يعهدون للمعوز من المال ما يغيثه ويتيح له أن يغيث أشد منه إعوازا . وكأني بالعرب قد أعلنوا الحرب على الفقر : يفضحه الفقراء للأغنياء ، فإذا بالأغنياء يتعقبونه توا ، وينهكونه بوابل من سهام أرميحتهم ، فيستسلم ، ويضطرونه إلى أن يلقى أسماه ، وأن يرفل في الذهب والحريز ، وأن يستبدل بلهجة البغض والحقد آيات الشكر والثناء .

وكان السخاء لديهم ينطوى على ثلاث صفات جوهرية وأساسية ، هي السرعة والتبذير والاستخفاف . فما كان يجوز لهم أن يتوانوا عن سائل أو يعطلوه أو يعللوه بالوعود ، إذ أن الوعود سحب لا بد أن يهمل غيبتها حتى ترتوى أرض الحاجة الممحلة . ويقول « روترو » Rotrou : « إنك تنقص قدر الحسنة التي ترجئها » .

وكان عليهم أن يقدقوا إغداقاً ، وذلك لا يعني كمية الهبة أو عدد ما تشتمل عليه مثل ما يعني أصل الهبة ومصدرها . فلا فضل لمن أعطى نقلاً ، ووهب مما زاد عن حاجته أو مما تدره عليه أملاكه . إنما الكرم من أعطى فحرم نفسه ، وبذل من رأساله ومن نصاب لوازمه . وهذه أقصوصة توضح ما نعنيه :

سئل قيس بن سعد : هل لقيت أكرم منك ؟ فأجاب . أجل ، لأن المنح لا يستحق الثناء ، إذا كان المرء موفور النعمة ، وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله . وأذكر إذ فاجأني الغيث يوماً أنني لذت أنا وصاحب لي بنجيمة أعرابي . وكان الرجل غائباً فرحبت بنا زوجته ، حتى سمعت من بعيد صوت حصان فقالت : ها هو ذا زوجي . ثم أقبلت عليه قائلة : لقد رزقنا ضيفين . فترجل واتجه إلى عدد قليل من النوق غير بعيد ، فتخبر إحداها ونحرها ، وقدم لنا الطعام . وراح ينحر لنا في كل يوم ناقة رغم أننا لم نأت على سابقتها . وما كان منه حين نهبناه إلى ذلك إلا أن أجابنا قائلاً : ليس من عادتي أن أقدم لضيفي مائدة الأمس . وقد بقينا على تلك الحال زمناً الجأتنا إليه للعاصفة ، حتى كان يوم انتهزنا فيه فرصة غياب مضيفنا ، فرحلنا ، تاركين له كيساً به مائة دينار ذهباً ، بعد أن استأذنا زوجته .

وقطعنا من الطريق مسافة غير قصيرة ، وإذا بصوت يصبیح بنا من ورائنا « أيها اللثيمان ، دونكما ! فقد والله أسقطنا قدرى إذ خلفنا لى عن قرا كما أجرى ! » ولحق بنا فألقى الكيس بين أيدينا قائلاً : « إليكما كيسكما ، خذاه وإلا أعلمت فيكما رمى ! » فلم نجد بداً من أن نرضخ لأمره ، إذ رأينا التصميم فى زجره .

وكانت ثلاثة صفات السخاء هى الاستخفاء . قال النبي فى حديثه « سبعة يظلمهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » الحديث .

وبديهي أن المعطى لا يصح له أن يفتخر بمكارمه ، وبديهي أيضا أنه على الآخذ أن يشيد بوجود المنعم عليه ، بل ولقد كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لرد الجميل وما أيسرها . وكان الشعراء يتكفون بذلك . وفي كل جيل كان بين الشعراء والمحسنين سباق في الكرم ، أولئك يتغنون باريحية هؤلاء ، وهؤلاء يكافئون مدائح أولئك ، وكلما رن ثناء الشعراء ، رنت معه آيات النعم . وفي ذلك ما يشرح بعض وقائع الجود الخيالية وبعض قصائد المدح المسرفة ، بين ما حفظ لنا ذكره التاريخ والروايات .

على أن العرب قد وجدوا السبيل إلى الاستخفاء في فعل الخير ، قبل ظهور الإسلام بهمد طويل ، ورغم حرصهم على حسن الصيت . فلقد كان لديهم ما يشبه صندوق إغاثة المعوزين حالياً ، إلا أنه لم يكن يحمل أية تسمية تجرح كبرياء المعوز ، وكان يغذيه لعب الميسر . فقد كانوا يلعبون الميسر بتسعة سهام ، يعرف كل منها باسم معين ، وتوضع كلها في جعبة ، يتناول منها كل لاعب سهماً . وكان الرهان حيواناً ، هو في أغلب الأحيان جمل ، فكان ينحر ويوزع لحمه على المساكين . كانوا إذن يلعبون الميسر ، لا ابتغاء لمتعة المقامرة فحسب ، بل ابتغاء لمتعة إطعام البائسين أيضاً .

يقول لبيد :

وجزور أيسار<sup>(١)</sup> دعوت لحفتها بمقالق<sup>(٢)</sup> متشابه أجسامها

(١) أصحاب ميسر .

(٢) سهام .

ادعو بين لعافر<sup>(١)</sup> أو مطلق<sup>(٢)</sup> بذلت لجيران الجميع لحامها  
فالضيف والجار الخنيب<sup>(٣)</sup> كأنما هبطت تباله<sup>(٤)</sup> مخصياً أهضامها<sup>(٥)</sup>

وفيما عدا الميسر ، كانت للغرب طريقة خاصة في المنح ، طريقة  
جماعية أيضاً ولكنها غير مستخفية . فكما كانوا يتبارون في الافتخار  
بالأنساب ، أو يتبارون بالأسلحة ، أو يتسابقون أو يتعارضون بالقصائد ،  
كانوا يعمدون كذلك إلى منافرات ومباريات في الكرم . ومن البديهي أن  
الهبات التي تسفر عنها هذه المباريات ، كانت لا تظل سرّاً مجهولاً ، بل  
كانت على التقيض تجرى في وضوح النهار وتسيطر عليها الرغبة في إظهار  
البذخ والأبهة حتى يتمكن الجمهور من الموازنة بين مناقب وحسنات كل  
من المتبارين الحاضرين . وكان الفوز لمن يجمع الملاء على الشهادة له بأنه  
أعظم الأسخياء ، رجلاً كان أم قبيلة . وكان ذلك شرفاً يخلد على مر  
القرون .

وفيما يلي مثل من منافرات الكرم ، سيلحظ القارئ فيه مرة أخرى  
تضامن القبيلة مع أحد أبنائها ، واشتراك الجميع بمواردهم وأمواهم وقرائحهم

( ١ ) التي لا تلد .

( ٢ ) ذات الولد .

( ٣ ) الغريب .

( ٤ ) واد مخصب من أودية اليمن .

( ٥ ) أهضام : جمع هضم ، وهو المظمن من الأرض .

لنصرة واحد منهم . على أننا نلاحظ فوق ذلك ، أن هذه المباريات التي تبدو لأول وهلة مثاراً للضحك ، كانت على العكس حفلات جلييلة النفع ، فلقد كانت تعود بالقوت والعناية مدة أيام طوال على شعب بأسره من المساكين . وهنا — كما هو شأن جميع فضائل الفروسية عند العرب — كان الخير ينبع من التنافس ، التنافس في إسداء الخير :

حدث بعد أن تشاجر حاتم وبنو لام<sup>(١)</sup> أن قالوا له : بيننا وبينك سوق الحيرة فهاجدك ونضع الرهن ، ففعلوا ، ووضعوا تسعة أفراس رهناً على يدي رجل من كلب يقال له امرؤ القيس بن عدى . . ووضع حاتم فرسه ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة . وسمع بذلك إياس بن قبيصة الطائي ، فخاف أن يعينهم النعمان بن المنذر ويقويهم بماله وسلطانه للصر الذي بينهم وبينه ، فجمع إياس رهطه من بني حية ، وقال : يا بني حية ، إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم في مجاد أي مما جدته . فقال رجل من بني حية : عندي مائة ناقة سوداء ومائة ناقة حمراء آدماء ، وقام آخر فقال : عندي عشرة حصن على كل حصان منها فارس مدجج لا يرى منه إلا عيناه . وقال حسان بن جبلة الخير : قد علمتم أن أبي قد مات وترك كل كثير فعلى كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة . ثم قام إياس فقال : على مثل جميع ما أعطيتم كلكم . هذا وحاتم

(١) الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٩٥ وما يليها .

لا يعلم بشيء مما فعلوا . وذهب حاتم إلى مالك بن جبار ابن عم له بالحيرة  
كان كثير المال فقال : يا ابن عم أعني على غيائتي (والمخايبة المتافرة)  
ثم أنشد :

يا مال إحدى خطوب الدهر قد طرقت  
يا مال ما أنتم عنها بزحراح  
يا مال جارت حياض الموت واردة  
من بين غمر فخصنناه وضحضاح

فقال له مالك : ما كنت لأحرم نفسي ولا عيالي وأعطيك مالي ،  
فانصرف عنه وقال مالك في ذلك قوله :

إنا بنو عمكم لا أن نباعدكم ولا نجاوركهم إلا على ناح  
وقد بلوتك إذ نلت الثراء فلم ألقاك بالمال إلا غير مرتاح

.. ثم أتى حاتم ابن عم له يقال له وهم بن عمرو ، وكان حاتم  
يومئذ مصارماً له لا يكلمه ، فقالت له امرأته : هذا والله أبو سفانة حاتم  
قد طلع ، فقال : ما لنا ولحاتم ، اثبتى النظر ، فقالت : ها هو . قال :  
ويحك هو لا يكلمني فما جاء به إلى ؟ فنزل حتى سلم عليه فرد سلامه  
وحياه ثم قال له : ما جاء بك يا حاتم ؟ قال : خاطرت على حسبك وحسبي .  
قال : في الرجب والسعة ، هذا مالي (وعدهته يومئذ تسعمائة بعير)  
فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد . فقالت امرأته :

يا حاتم أنت تخرجنا من مالنا وتفضح صاحبنا (تعني زوجها) فقال :  
أذهبي عنك فوالله ما كان الذي غمك ليردني عما قبل . وقال حاتم :

ألا أبلغا وهم بن عمرو رسالة      فإنك أنت المرء بالخير أجد  
رأيتك أدنى الناس منا قرابة      وغيرك منهم كنت أحبو وأقصد  
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا      بموت فكن يا وهم ذو يتأخر

ثم قال إياس بن قبيصة : احمأوني إلى الملك وكان به نقرس فحمل  
حتى أدخل عليه . فقال : أنعم صباحاً أبيت اللعن . فقال النعمان : وحياك  
إلهك . فقال إياس : أتمد أختانك بالمال والخليل وجعلت بني ثعل في قعر  
الكنانة ، أظن أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم  
يشعروا أن بني حية بالبلد ؟ فإن شئت والله ناجزناك حتى يسفح الوادي  
دماً ، فليحضروا مجادهم غدأ بمجمع العرب . فعرف النعمان الغضب في  
وجهه وكلامه ، فقال له النعمان : يا أحلمنا لا تغضب فإني سأكفيك .  
وأرسل النعمان إلى سعد ابن حارثة وإلى أصحابه : انظروا ابن عمكم حاتمأ  
فأرضوه فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تبذرونه وما أطيق بني حية . فخرج  
بنو لام إلى حاتم فقالوا له : اعرض عن هذا المجاد ندع أرش أنف ابن  
عما . قال : لا والله لا أفعل حتى تتركوا أفراسكم ويغلب مجادكم . فتركوا  
أرش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا : قبحها الله وأبعدها فإنما هي مقارف ،  
فعمد إليها حاتم فقعرها وأطعمها الناس ، وسقامهم الحمر وقال حاتم في ذلك :

أبلغ بنى لام فإن خيولهم عقرى وإن مجادهم لم يمجده  
ها إنما مطرت سماؤكم دماً ورفعت رأسك مثل رأس الأصيلد

وتقدم لنا جمعية بوكير Beaucaire صورة باهتة لهذه المباريات في الكرم التي كثرت بين عرب الجاهلية . ويروى لنا ج - ج أمبير ما دار في « بوكير » فيقول : « رأى القوم هناك عشرة آلاف فارس يتسابقون في السخاء والتبذير ، فقد أخرج « الكونت دى تولوز » مائة ألف قطعة من الفضة ، وسلمها ل « ريمون داجو » Raymond d'Agout هبة خالصة ، فبادر هذا الأخير إلى توزيعها على فرسانه . وخطر لآخر أن يأمر بحرق حقل من الحقول ، وبذر ثلاثين ألف قطعة من الفضة فيه . ولم يدر ثالث كيف يثبت ازدهاره للعمال ، فأمر بإحضار ثلاثين حصاناً فارهاً وأحرقها (١) . . . » وهنا يحق لنا أن نقول مع « لابرويير » : « ليس الجود أن تعطى كثيراً بقدر ما هو أن تضع الإحسان في موضعه (٢) » . ومن الصحيح أن تاريخ العصور الوسطى يتحفنا بأمثلة أخرى فردية لأريحية يقودها الذكاء ، فإن « فرواسار » Froissart - وهو يطنب في ذكر مكارم « الكونت دى فوا » Comte de Foix التي نال نصيبه منها - يخبرنا بأن هذا الكونت في عام ١٣٨٧ ، « قد أغدق بمحض إرادته - على

(١) منوعات من التاريخ الأدبي والأدب ، ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) راجع كتاب لابرويير : الخلائق ( Les Caractères de La Bruyère )

و « صوت لابرويير » للدكتور أنور لوقا ، ص ٩٨ (تحقيق) .

الفرسان والتابعين الذين كانوا يمرون ببلدة « أورتيه » ويقابلونه في قصره ليرووا له الأنباء - الكثير ، فلقد منح أحدهم مائة فلوران والثاني مائتين والثالث ثلاثمائة كما أعطى الرابع أربعمائة والأخير خمسمائة حسب رتبهم ، فكان أن أنفق « الكونت دى فوا » على هؤلاء الذين ألموا به لأول مرة - كما روى لى القائم على أمواله في « أورتيه » - مبلغ ألف فرنك ، دون أن يدخل في ذلك ثمن الجياد والسروج التي وهبها إياهم « (١) .

على أن هذه الهبات لا يمكن أن تقارن بأريحية العرب ، فإنها لتبدو بالنسبة إليها بخلاً وتقديراً ، لا يظهر أصحابه من « سادة الدنيا » (٢) إلا « الشك في نعمة الخالق » (٣) .

فهذا عبد الله بن جعفر يجيب الحسين بن علي بن أبي طالب ، وقد لامه على إسرافه في البذل ، قائلاً : « لقد عوذني الله أن يغمرنى بالنعم ، وعودته أن أغدق نعمه على خلقه ، وإني لأخشى ، إذا أنا هجرت عادتني ، أن يهجر الله عادته » . كما يرد حسان بن سهل على من قال له « لا خير في الإسراف » ردّاً أريباً إذ يقول : « لا إسراف في الخير » .

ولقد كان أسلوبهم في الإعطاء أروع من عطاياهم أيضاً . كان فيه نبل كبير ، ورقة جمّة ، وشيء من التحفظ والتحرج ، وبعبارة موجزة

(١) عن « لاکورن » ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) قال عبد الله بن عباس : « الأسخياء سادة الدنيا كما أن الأبرار سادة الآخرة » .

(٣) قال المأمون : « ما البخل إلا دليل الشك في نعمة الخالق » .

كان فيه حياء عذب . فهذا « يعطى كل ما عنده ويعتذر » ، وذلك  
 تراه إذا ما جثته مهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله<sup>(١)</sup>  
 والحق أنك لا تدري من منهم الأسعد ، أهو الذى يعطى أم الذى  
 يأخذ ؟ بل من هو المنعم الحقيقى ؟ فدعنى أنبئك أنه ليس — كما يدرك  
 الناس — هو المعطى ، وإنما هو الذى يرضى أن يتقبل هباتك . وتذوق  
 معى قول ابن عباس يردده الخليفة عبد العزيز بن مروان :

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكر  
 وباكرنى فى حاجة لم يكن لها سوى ولا من نكبة الدهر ناصر  
 فرجت بما لى همه عن خناقه وزايله الهم الطروق المساور  
 وكان له فضل على بظنه بى الخير إنى للذى ظن شاكر<sup>(٢)</sup>

تلك كانت مميزات سخائهم ، وتلك كانت طريقتهم فى الجود .  
 فكيف كان أسلوبهم فى استقبال الضيف ؟ كيف كانوا يزاولون هذا  
 السخاء فى إيواء الغرباء وإطعامهم مجاناً ، وهو ما يعرف بالقرى ؟

لقد كان كرم الضيافة لدى الشعوب القديمة عادة متبعة ، بل واجباً  
 ملزماً . يقول « تاسيت » فى ذكر الجرمان : « إن رب البيت يقدم أشهى  
 الطعام لمن يقصدونه ، كما يتيسر له ، فإذا نضب الزاد عنده ، اقتادهم

(١) قول زهير فى هرم بن سنان .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٧

إلى أقرب بيت يجدون فيه الضيافة»<sup>(١)</sup> ومن ثم ، كان الضيوف لدى  
الجرمان موضع الترحاب . . .

ولدى البورجنديين ، نصت إحدى مواد القانون على أن « من يرفض  
المغترب على سفر أن يقاتل عنده وأن يصطلي ، فإنه يعاقب بغرامة قدرها  
ثلاثة دراهم . وإذا قصد المغترب بيت بورجندي وطالب الضيافة فذله  
البورجندي على بيت روماني ، فعليه أن يدفع ثلاثة دراهم على سبيل الغرامة  
ومثلها على سبيل التعويض لصاحب البيت الذي دل عليه»<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن لدى العرب ما يشبه ذلك . فلقد كان القرى قاعدة مرعية  
لديهم ، ولكنه لم يكن إكراماً . لم يكن يفرضه نص من نصوص القانون ،  
وإنما كان قرى حرراً ، حفيظاً ، سهلاً ، يرجع إلى تقاليد ضاربة في القدم ،  
وينسب رأساً إلى إبراهيم جد العرب . ويروي القرآن كيف أضاف إبراهيم  
من نزلوا عليه ، وإنه لمثل كريم قد احتذاه العرب دائماً ، ويجدر بأرباب  
البيوت ورباتها ممن يحرضون على بساطة الترحيب ويسره أن يحتذوه أيضاً .  
قال تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا  
سلاماً ، قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .

(١) تاسيت : أخلاق الجرمان ، الفصل الحادي والعشرون .

(٢) أوجستان تييري : رسائل في تاريخ فرنسا ، ص ٨٢ .

فقربه إليهم قال ألا تأكلون . . . » (١) .

ويوجه مفسرو هذا النص أنظارنا إلى أن هؤلاء الضيوف المجهولين لم يكن عليهم أن يطرقوا باب العاهل ، ولا أن يخطروه بمقدمهم أو يستأذنوه ، بل دخلوا أيسر دخول ، لأن الدار كانت مفتوحة ترحب بالوافدين . وهم ينهون كذلك بخروج إبراهيم خلصة ، إذ لم يرد أن يشعر ضيوفه لحظة بأنه مضى لإعداد ما يلزم لهم ، لئلا يساورهم الحرج . . . وهم يبرزون بهذا الصدد أدب إبراهيم الجلم ، وهو الذى بدلا من أن يصدر أوامره إلى خدمه ، تجشم بنفسه عناء تهيئة المائدة . ولقد تخير إبراهيم من بين قطعانه — وتلك ثروته الوحيدة — أفضل وأتمن ما يذبحه . وعند ما رأى ضيوفه لا يقبلون على الطعام الذى عنيت هاجر بإعداده ، قال لهم : « ألا تأكلون ؟ » وكان بوسعهم أن يخاطبهم بعبارة دارجة أو بعبارة متكلفة ، ولكنه لم يفعل ، لأنه يظن فى تواضع أن طعامه لا يستحق عبارات الثناء . وهكذا قال لهم العاهل فى بساطة : « ألا تأكلون ؟ » فكان ذلك بلا كلفة على الإطلاق .

وتبع العرب حرفياً هذا التقايد النبيل . وأصبح كرم الضيافة الشرق مضرب الأمثال . وكان هذا الكرم منذ العصور الوسطى محل تبجيل الفرسان المسيحيين (٢) .

وكان كرم الضيافة — على الرغم من شيوعه بين العرب — فضيلة

---

(١) سورة الذاريات .

(٢) راجع جوتيهيه ص ٨٣ .

محمودة ، تضيئي على صاحبها من الشناء بقدر ما يتحلى بها . وهنا ايضاً فرض التنافس على العرب سباقاً تجلى في ضروب من العناية والإنعام والرقرة ما كانت تخطر لسواهم على بال . وإذا كانوا جميعاً يكرمون الضيف ، فقد ظنوا في أول الأمر أن بعضهم سيمتاز على بعض ويتفوق بأبهة الترحيب ، ولكنهم لم يلبثوا حتى لاحظوا أنهم في حلبة الكرم جميعاً على حد سواء . ولقد كانوا جميعاً في الواقع خليقين بأن يقولوا ، دون أن يشوب الكذب قولهم : فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا بعد بنجيل<sup>(١)</sup> وكان لكل منهم - أيا كانت قبيلته - أن يتمثل بقول حاتم لغلامه « يسار »<sup>(٢)</sup> :

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا غلام ريح صر  
عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر  
بل ولقد كان أشدهم فقراً يعرف كيف يكرم الضيف غاية الإكرام ،  
أما كانوا يعمدون إلى ذبح الدابة الوحيدة التي يقتنونها لكي يشبعوا ضيوفاً  
عابرين ؟

وإذا لمس العرب أن بعضهم لن يمتاز على بعض بأبهة الضيافة سعوا  
إلى أن يتفوق بعضهم على بعض بلطف الاستقبال والحفاوة . ولكنهم هنا  
أيضاً كانوا على حد سواء ، وكانوا يستطيعون أن يتأسوا بقول حاتم أيضاً :

(١) للسمول . انظر ديوان الحماسة ج ١ ص ١١٥ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٣٣

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب  
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب  
وبلغ الأمر في كل مكان أن استحال التمييز بين المضيف والمضيف.  
وظلت المسألة بلا حل. فلقد كان كرم الضيافة عاماً سخياً حفيماً في  
جميع أرجاء بلاد العرب على السواء ، ولم يكن بد مع ذلك من أن يجد  
المرء سبيلاً إلى أن يفعل أكثر إن لم يفعل خيراً من سواه . ومنذ ذلك  
الحين ، حاول البعض أن يتفوقوا على البعض بعدد من يستأثرون باستقبالهم  
والإنفاق عليهم من الضيوف . ومضى القوم يستدعون الضيوف ويحشدونهم .  
ولما كان يتعذر على المرء بث الدعاية لما يدخر من قرى للتزلاء — إذ كان  
هذا القرى واحداً بعينه في كل مكان — فلقد راح يتفنن في جذب خطا  
الرحالة نحو داره . وبدأ برفع الأعلام على الخيام ، حتى يستطيع السائر  
أن يتبين من بعيد « الفندق » الذي ينتظره . غير أن الأعلام لا تكاد تظهر  
للبر في الليالي التي يغيب فيها القمر ، فعمد القوم إلى إيقاد النار على  
التلال المجاورة . ولم ينسوا المكفوفين ، فأوقدوا لتبنيهم خشباً عطراً . . .  
بيد أن جميع هذه الإجراءات لم تعتبر كافية مرضية ، فاستعانوا بصديق  
الإنسان ، وربطوا حول القبيلة في مواضع متباعدة كلاباً تطعم أشهى  
الطعام إذا جلبت ضيفاً، فكانت تنبح . وكان هذا النباح دعاءً، ودليلاً  
يهدي الحاج والمتنقل . فما كان عليهما إلا أن يصيحخا إلى هذه الأصوات  
ويتبعها ليضمنا عشاءً ممتازاً وحفاوة أعظم . ولقد أمعن حاتم الطائي في تيسير

السبيل ، فكان يرسل عبيداً للقاء المسافرين ، وكان يعتق العبد إذا أسعده طالعه بإحضار ضيف إلى الدار . وأما عبد المطلب الذي لقب « شيب الحمد » فقد مد أطراف كرمه حتى طيور السماء ، إذ كان يأمر بأن تحمل إليها بقايا مآذبه . . .

وارتفع قدر القرى وإكرام أكبر عدد من الضيوف حتى أصبح مزية الرؤساء . ولما لم يستطع « كليب » ، وهو رئيس قبائل « معد » كلها ، أن يفعل في هذا المضمار أكثر أو أفضل من أقل رساياه شأناً ، بدا له أن ينتزع من مواطنيه حق القرى ، وأراد أن يكون وحده ولي النعمة والإغداق ، وأن يحتكر الكرم احتكاراً . وباله من جنون لقي فيه حتفه ! فإن شر طغيان يضيق به العربي ، ليس طغياناً يحرمه ماله وحياته ، وإنما هو الجور الذي يحرمه مزاوله أقدس حقوقه وأحب فروضه والواجب الذي يجد فيه البركة ، ألا وهو القرى ، وإكرام من يرزق بهم من الضيوف .

على أننا كما نرى في جنة من جنان الورد ، بعض الورد تفوق أخواتها بحسنها ، ورقة شذاها ، ورونق لونها ، وما تفيض به نفسها الحلاوة من سحر وفتنة ، فإننا نرى كذلك في حقل الجود العربي المزدهر رجالاً استحقوا بين شعب بأسره من الكرماء لقب الكرم ، وقد خلعتهم عليهم عطاياهم بوفرتها وتنوعها واتصالها وريقها . ومن أولئك ، كان في الجاهلية حاتم الطائي وكعب ابن مناة وهرم بن سنان وقيس بن سعد ، وفي الإسلام عبيد الله بن العباس ، وسعد بن العاص ، وعبد الله بن جعفر ، ومعن بن زائدة ، والفضل البرمكي

وهيئات أن تم القائمة ، فإن الكرم العربي كوردة « أريحا » تحيا دائماً حياة متجددة رغم ما يبدو من أنها قد جفت .

وفيما يلي - بدلاً من إيراد طرائف وملحات تصور الأريحية ( وكان ينبغي ذكرها جميعاً لا الاقتصار على مختارات منها) (١) - أبيات « حاتم » التي وجهها إلى خطيبته « ماوية » والتي تبين كيف كان هذا الكريم يفهم معنى الغنى وفيم كان يستخدمه :

وقد عذرتنا عن طلابكم العذر	أماوى قد طال التجنب والهجر
ويبقى من المال الأحاديث والذكر	أماوى إن المال غاد ورائح
وإما عطاء لا ينهيه الزجر	أماوى إما مانع فبين
إذا جاء يوماً حل في مالى التزر	أماوى إنى لا أقول لسائل
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر	أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى
من الأرض لا ماء لدى ولا خمر	أماوى إن يصبح صداى بقفرة
وأن يدى مما بخلت به صفر	ترى أن ما أنفقت لم يك ضرنى
بمظلمة ليج جوانبها غير	إذا أنا ولانى الذين ياومنى
يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر	وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم
فأوليه شكر وآخره ذكر	أماوى إن المال مال بذلته

---

(١) راجع من أمثلة الكرم في كوسان دي برسفال ج ٢ ص ٥٧٣ و ٦٠٠ وما يليها ، قصة « زيد الكيل » ، وفي برون : النساء العربيات ص ١١٤ وما يليها ، وفي المسعودى ح ٦ و ٧ و ٨ ، وفي العمدة الفريد ، وفي الأغاني ، الخ .

وقد يعلم الأقسام لو أن حاتمًا  
 فإني وجدى رب واحد أمه  
 ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتي  
 غنيا زماناً بالتصعلك والغنى  
 فما زادنا بأوا على ذى قرابة  
 غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر<sup>(١)</sup>

ولن نجد خاتمة لهذه الدراسة عن كرم اليد خيراً من قول النبي<sup>(٢)</sup>  
 « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط  
 منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

## ٢ - كرم النفس

« يرجع تسامح العرب إلى أصول بعيدة ، لأن شعباً يحرص على  
 الحرية هذا الحرص لا يسيغ الجور في شئون الإيمان<sup>(٣)</sup> » . وما أكثر  
 الشواهد التي تدل على قلة أكثر العرب بالمسائل الدينية . فلقد كانوا  
 يكيلون لما يعبدون من الأصنام عبارات التهم البارع ، بل اللاذع ،  
 وكانوا يتلقون بتشكك لا يخلو من المكر ما يطلع به الكهان عليهم من  
 عقائد جديدة ، وها هو ذا أحدهم يرجم صنماً لأنه رأى في اللحظة التي

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) صحيح البخارى ، ج ٤ ص ١٤٢ ( طبعة كتاب الشعب ) .

(٣) دوزى .

تأهب فيها لنحر شاة لذلك الصنم أن قطيعه قد تشتت ، وآخر يشتم صنمها  
ثانياً عندما حج إليه يسأله هل ينبغي أن يثار لمقتل أبيه فأجابه بالنفي .  
ولقد اعتاد ملك اليمن ابن عبد كلال ( من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٠ ) أن  
يقول : « إنني أملك على الأبدان لا على العقول ، فليطع رعاياي  
حكماً ، وأما عقائدهم فإن الإله الخالق هو الذي يحكمها (١) » .

وهل احتفظ العرب بهذه الحرية التي تدل على كرم النفس بعد أن  
انضوا تحت لواء الإسلام ؟ لقد سبق لنا أن أوضحنا كيف كان  
المسلمون يسلكون دائماً مسلك التسامح حيال أعدائهم الذين كانوا يعتبرونهم  
« كفاراً » ، فهل كانت تلك هي سيرتهم أيضاً مع رعاياهم غير المسلمين ؟  
إن التاريخ يظهرنا على خلفاء كان يحوطهم الأطباء والفلكيون والشعراء  
والعلماء من النصراني واليهود ، وكانوا يغدقون عليهم أعظم آيات التكريم ،  
ويعنون في ذلك إلى حد تفضيلهم على وزرائهم وأصفيائهم . وما أكثر  
مثل هذه الطرائف التي تشهد بنفحات التبجيل والتقدير التي كان يحظى  
بها أولئك لدى « أمير المؤمنين » .

فعندما أحس طبيب المنصور ( ٧٥٤ - ٧٧٥ ) بدنو أجله ، استأذن  
الخليفة في أن يعود إلى بلاده حتى يدفن بين أهله . فحاوره قائلاً :

— أسلم حتى نلتقي في الفردوس

فرد المريض قائلاً :

---

(١) كوسان دي برسفال ج ١ ص ١١١ .

— إنى أؤثر أن الحق بأجدادى ، سواء أكانوا فى السماء أم فى  
البحيم .

واستظرف المنصور رده فضحك ، وأنعم على الطبيب بعشرة آلاف  
دينار من الذهب ، وأمر له بحراس يرافقونه حتى مسقط رأسه (١) .

وعندما حج هرون الرشيد (٨٧٦ — ٨٠٩) دعا فى صلاته جهرا  
لطبيبه جبريل بن بختيشوع ، فقال له بعض من لاحظ ذلك :

— يا أمير المؤمنين ، إنك تدعو فى صلاتك لنصرانى .

فأجاب أمير المؤمنين :

— أجل ، ففضله تمتلى الصحة ، وعلى صحى يتوقف عز المسلمين ،  
فخير لكم جميعاً أن يعمر طبيبي ويسعد (٢) .

ولقد ذهب المعتصم (٨٣٣ — ٧٤٧) إلى أبعد من ذلك المدى ،  
إذ حدث عندما توفى طبيبه وصديقه — وقد اعتاد أن يدعوه « أبى » — أن  
أمر بتشيع جنازته « على طريقة النصارى بالشموع والبخور » ، وتبع  
المشهد بعينيه من إحدى نوافذ قصره وهو يبكى كالطفل أمام الشعب  
المحتشد (٣) .

(١) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ، ص ١٨ .

(٢) طبقات الأطباء ج١ ص ١٣٠ ، وزيدان . تاريخ التقدم الإسلامى ج٣ ص

١٦٣ .

(٣) طبقات الأطباء ، ص ١٦٥ ، وزيدان ج٣ ص ١٦٥ .

وتتناول هذه النواذر الأطباء خاصة ، غير أننا نستطيع أن نورد هنا ما لا يقل طرافة عن العلماء والشعراء والمترجمين . . . . . وحسبنا أن نقول إن أكثر الخلفاء — خلفاء بغداد وقرطبة والقاهرة على السواء — قد حموا العلماء وأهل دينهم مهما كانت عقيدتهم . ومن ناحية أخرى كانت مدارس العرب مفتوحة للجميع من فقراء وأغنياء ، من نصارى ويهود ومسلمين . وفي القرن العاشر رحل إلى طليطلة الراهب جريبر (Gerbert) ، وهناك درس الرياضة والتوقيت والسحر على أيدي أساتذة عرب مدة ثلاث سنين ، ويقول « رينو » إن تقدمه في هذه المعارف قد أوهم العامة بعد عودته أنه ساحر ، ثم أصبح « بابا » باسم سيلفستر الثاني<sup>(١)</sup> . وكذلك يذكر أحمد المقرئ — الذى أفرد فصلا لمن برز من اليهود والنصارى في الأدب العربى — عددا كبيرا من الأدباء الإسبانيين اشتهروا بروعة شعرهم ونثرهم<sup>(٢)</sup> .

وهل بنا حاجة إلى أن نقول إن هذا التسامح ، بل حسن الرعاية ، كان يشمل الفلاسفة والمحدثين من بين المسلمين أنفسهم ؟ فإن المأمون — وهو الذى فرض على الإمبراطور اليونانى ميخائيل الثانى أن يرسل إليه بدلا من الجزية عددا من المخطوطات القديمة — قد أمر بسجن الفقهاء الذين

(١) انظر فيلمان (Villemain) : منهج الأدب الفرنسى ج ١ ص ١١٩ .

ورينو (Reinaud) غزوات الأندلسيين ص ٢٩٢ ، ويسيموندى ج ١ ص ٩٧ .

(٢) انظر فورزيل ج ١ ، ص ٤٢٠ وما يليها .

حاربوا فلاسفة عصرهم باسم الدين<sup>(١)</sup> . وبعد أن حاصر صلاح بن مردس بلدة المعرة ، ارتضى أن يرفع عنها الحصار وأن يعفو عن أهلها لكي لا يسىء إلى أبي العلاء المعرى - فولتير العرب في القرن العاشر<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - كرم القلب

كان الحلم من أهم وأعظم الصفات الست التي كان ينبغي أن يتحلى بها كل من يطمح إلى أن يكون سيد قبيلته<sup>(٣)</sup> . وفي ذلك ما يدل على مكانة هذه الفضيلة بين العرب ، فضيلة الصفح والمغفرة ، وهي التي تتمثل فيها روح المسيحية بوجه خاص . والحق أنهم لم يمارسوها كما أتى بها الإنجيل، ولم يبلغ بهم الأمر أن يقدموا خدعهم الأيمن لمن لطمهم على خدعهم الأيسر، فلقد كان مثل هذا السلوك خليقاً بأن يوصم في عرفهم بالضعف ، وما كان العرب بالذين يرتضون أن ينعنوا بالضعف ، وإنما كانوا يتعقبون المذنب ولا يعفون عنه حتى يتمكنوا منه . وهكذا كان الحلم لديهم تاج القوة ، فليس من الحلم أن يعفو عن مذنب عاجز « عن تأديبه »<sup>(٤)</sup> . إن

---

(١) راجع زيدان ج ٣ .

(٢) علي بن يوسف القفطي ، عن محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ١٠٦ .

(٣) راجع فيما سبق باب « تعظيم السلف » .

(٤) قال معاوية « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة » .

أولئك الذين كانوا يطبقون شريعة القصاص دون هوادة ولا رحمة في أكثر الأحيان ، ولا يكتفون عن عين بعين وعن سن بسن بل يضاعفون الثأر والبطش<sup>(١)</sup> كانوا يعرفون ، عندما يتغلبون على عدوهم ، كيف يتغلبون على أنفسهم ويصفحون . لقد كانوا يحرصون على أن يصفحوا حرصهم على أن يثأروا . وكلما ثقل الذنب ، رق حلمهم وكرم .

وبلغ من انتشار هذه العاطفة النبيلة بينهم أن صيغت قبل ظهور الإسلام في أمثالهم . فلقد كانوا يقولون : « لا عظمة مع الحقد » وكذلك « إذا غلبت فكن عفواً » وكانوا يؤكدون أن « الكريم من يغفر الذنوب ويسر العيوب » .

ونمت مع الإسلام هذه الأخلاق الحميدة ، فلقد استمد المسلمون من رغبتهم في إرضاء الله حافظاً جديداً إلى السمو .

وهذا على بن أبي طالب يوصي وصية جديدة بأن تصدر عن بطل من أبطال المسيحية في عهدنا الأول « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » .

وسأل أحدهم الوزير الفضل بن يحيى « ما الفروسية ؟ » فأجاب « العفو عن الذنوب » .

وعندما أمر هارون الرشيد بإعدام عميد الطوسي . طفق الشق ينتحب فسأله الخليفة :

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم : ألا لا يجهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

— أتبكي خوفاً ؟

فأجابه :

— كلا فسوف نموت جميعاً ، وإنما حزننا للخروج من الدنيا وقد  
أغضبت مولاي .

فابتسم الخليفة وأمر بإطلاق سراحه قائلاً :

— ما أيسر أن يفتّر الكريم بمكارمه !

وما أكثر ما كان يحلو له أن يفتّر على هذا النحو<sup>(١)</sup> !

وإذا كنا لا نستطيع أن نورد كل ما قيل ، فإننا نذكر من جوامع  
الكلم هذه العبارة التي تنسب إلى معاوية بن أبي سفيان ، مؤسس الأسرة  
الأموية : « لا أطيق أن يكون على الأرض جهل يعيى به جلدى ،  
ولا ذنب لا يحتويه حلمي ، ولا حاجة لا يسدها جودي » .

ونقتصر هنا على إيراد واقعيتين للتدليل على هذه المبادئ النبيلة . ولقد  
انتخبناهما من بين آلاف النوادر التي تروى بهذا الصدد ، لأنهما ، إلى  
جانب إظهار الكرم ، تظهر الأولى منهما إرهاف ضمير رجل كعمر  
ابن الخطاب اعتاد القوم أن يصوروا شدته وصرامته ، وتظهر الثانية كيف

---

(١) يورد « فلوريان » (Florian) عن « هربلو » (Herbelot) (المكتبة

الشريفة) و « ماريني » (Marigny) (تاريخ العرب) قول المأمون :

« آه لو عرف الناس كم يسرفي أن أغفر لأقيل جميع من أذنبوا إلى يعترفون بذنوبهم » .

راجع المستطرف ص ٢٥٧ .

كان الندماء يلقون الدروس على الملوك :

لحق عمر بن الخطاب رجلاً مخموراً فأمر بأن يزوج به في السجن ، فسبه المخمور سباً فاحشا . فقال عمر : « إني لأعفو عنك » ، فعجب أصحاب عمر من أن يطلق سراح رجل يقدح في سبه ، غير أنه أجابهم : « لقد أفلح في أن يغضبني ، وأخشى إذا عاقبته أن أكون متشفياً لا عادلاً ، وأن أكون إنما أثار لنفسي ، وليس لي أن أثار من مسلم » .

واحتد الخليفة عبد الملك بن مروان يوماً على لتيم هزئ به فقال : « لو مكنتني الله منه لفعلت به كذا وكذا » . ولما انتهى الأمر بإلقاء القبض عليه قال للخليفة أحد جلسائه ، « يا أمير المؤمنين ، لقد حقق الله رغبتك ، وعليك الآن أن تفعل ما يرضى الله » . وأجاب الخليفة ، وهو ما زال تحت وطأة غضبه : « عفوت عنه ، وليصرف لهذا الرجل من الذهب ما يهدئ روعه . » ولا تذكر القصة كم لزم من الدنانير لإدخال الطمأنينة على قلب ذلك الرجل المسكين ، ولكننا نظن أن فرائضه ظلت ترتعد حتى ملأ الذهب جيوبه . . .

على أن هناك لونا آخر من الحلم يتجلى في حسن الرعاية التي يولها المرء خصمه ، وتلك هي الإنسانية في معاملة الأسير ، وهذا النبيل لإزاء العدو ، وذلك الأدب الجلم الذي يتحلى به رجال الحرب ، وأسلوبهم الشهم في تحية الشجاعة حيث خانها الحظ ، وفي الاعتذار الودى عن الفوز على ند ما كان أحراه مثلهم بالنصر لو لم يجانبه التوفيق في المعركة . .

لقد حصر المنصور (٩٧٦ - ١٠١٠) يوماً في شِعب فرقة كثيرة  
النفر من الأسبانيين ، فأصدر إليهم الأمر باللقاء سلاحهم ، ولكنه إذ رآهم  
مصممين على الهلاك دون التسليم ، فتح صفوف جنوده وتركهم يلحقون  
بالجيش الأسباني ، مؤثراً أن يرسل للعدو نجدة على أن يأمر بتذبيح كل  
هؤلاء الرجال الباسلين . . . ولقد أنصفه الأسبانيون ، فكتب موسدن  
( Mosden ) يقول : « لقد كان يدمر بالحديد والنار المدن التي كانت  
تقاوم جيوشه ولكنه لم يأذن قط بأن يلحق أهون شر بالمدن التي كانت  
تستسلم طائعة (١) » .

وفي عام ١١٩١ ، ترك « فيليب أوجوست » جيش الصليبيين وحضر  
إلى صور يستعد لعودته. وهناك أرسل إليه صلاح الدين وقد أرسماً ليحييه  
ويقدم له من الهدايا ما يجدر بملك عظيم ، ولقد دأب هذا السلطان على  
أن يعطى ولو أعداءه ما يدل على بذخه (٢) .

وأدخل مرض « ريشارد قلب الأسد » الحزن على قلب صلاح الدين  
وأخيه ، اللذين ظلا يظهران الود نحو خصم صريح شجاع . وكان  
« ريشارد » في سكرات الحمى يطلب فاكهة ، فجعل صلاح الدين  
يرسل إليه الكمثرى والخوخ والثلج الطازج الذي يأتي به رجاله من الجبل  
كل يوم (٣) .

(١) ل. فياردو : مقال في تاريخ العرب والأندلسيين ، سنة ١٨٢٣ ج ١ ، ص ١١٢ .

(٢) ماران : تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٣) ستانلي لين بول ص ٣٥٥ .

ويحكى أنه عندما أسر أهل دمياط « جان دي بريين (Brienne) (Jean de)، واقتادوه لدى الملك الكامل ، طفق يبكي . ونظر السلطان إليه وسأله عن سبب بكائه فأجابه : « من حتى يا مولاي أن أبكي وقد رأيت الشعب الذي عهد الله به إلى يهلك بين الأمواه ويموت جوعا » . فرق السلطان له ، وبكى لبكائه ، وأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف للفقراء والأغنياء ، فعل ذلك أربعة أيام متتالية (١) .

ويروى أيضاً أن الأمير ابن رائق ، عقب التحامه بجيوش الأخشيد في موقعة لاجون ، كشف في ميدان القتال بين جنث القتلى جثة أخ للأخشيد . ويقال إنه اغتم لذلك ، حتى إنه أرسل في الحال ولده لخصمه ، فدية وتعويضا . وتأثر الأخشيد ، ولم يرد أن يتخلف في مجال الكرم ، فخلع على الفتى خلعة نفيسة ، وردة إلى أبيه معززا وتم - كما يتم في الروايات طبعا - اقتران الفتى بابنة عدوه ، وهكذا أقبلت أواصر الود والمصاهرة تدعم معاهدة التحالف التي أوجت بها إلى القائدين الشهيرين عواطف الفروسية (٢) .

ولا يظنن القارئ إذ يلاحظ أننا استشهدنا هنا وفيما سبق بأمانة مستقاة من العصر الإسلامي ، أن عرب الجاهلية لم يعرفوا كرم القلب . فالقد

---

(١) جوستاف شلومبرجيه (G. Schlumberger) : قصص من بيزنطة والحروب الصليبية .

(٢) ستانلي لين بول : تاريخ مصر في العصور الوسطى ، ص ٨٣ .

كان كرم القلب — على العكس — سجية شائعة بينهم . ولما كانوا في حرب دائمة ، يضرب بعضهم بعضا ، ويتتصرون تارة وينهزمون أخرى ، فقد كان يحدث أن يغيث المكروب منهم نصير وفي يذكر له يداً في محنة سلفت . وها هي ذى في ختام حديثنا لوحة تصور خلق القوم ، تمثل الكرم ، وتبرز في الوقت ذاته الشهامة الفرسانية ، حوالى القرن السادس : خرج دريد بن الصمة في فوارس بني جشم ، حتى إذا كانوا يواد لبني كنانة يقال له الأخرم ، وهو يريد الغارة على بني كنانة ، وقع له رجل من ناحية الوادى معه ظعينة ، فلما نظر إليه ، قال لفارس من أصحابه : صح به أن خل عن الظعينة وانج بنفسك ، وهو لا يعرفه فانتهى إليه الرجل وألح عليه ، فلما أبى ألحقه الزمام الراحلة وقال للظعينة : سيرى على رسلك سير الآمن سير رواح ذات جأش ساكن إن اثنتائى دون قرنى شأنى أبلى بلائى واجترى وعابى ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه ، فأعطاه الظعينة . فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ، فرآه صريعا . فصاح به فتصامم عنه ، فظن أنه لم يسمع فغشيه ، فألقى الزمام عليها ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول :

خل سبيل الحرة المنية إنك لاق دونها ربيعة  
 فى كفه خطية منية أولا فخذها طعنة سريعة  
 فالطعن منى فى الوغى شريعة

فلما أبطأ على دريد ، بعث فارساً آخر لينظر ما صنعا ، فأتته  
إليهما فرأهما صريعين ، ونظر إليه يقود ظيعيته ويجر رحله فقال له الفارس :  
نخل عن الظعينة ، فقال لها ربيعة : اقصدي قصد البيوت ، ثم أقبل عليه  
فقال :

ماذا تريد من شميم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس  
أرداهما عاجل ربح يابس

ثم طعنه فصرعه فانكسر رحله ، فارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا  
الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق بهم فوجد ربيعة لا ربح معه وقد دنا من  
الحى ، ووجد القوم قد قتلوا . فقال له دريد : أيها الفارس إن مثلك  
لا يقتل ، وإن الخيل ثائرة بأصحابها ، ولا أرى معك ربحاً ، وأراك حديث  
السن ، فدونك هذا الرمح ، فإني راجع إلى أصحابي فثبط عنك . فأتى  
دريد أصحابه فقال : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم ، وانترع  
رحى ولا لكم فيه . فانصرف القوم وقال دريد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامي الظعينة فارساً لم يقتل  
أردى فوارس لم يكونوا نهزة ثم استمر كأنه لم يفعل<sup>(١)</sup>

(١) الأغاني ج ١٤ ص ١٢٩ وما يليها .